

سُلُوكُ الْعَوَامِّ وَالْخَوَاصِّ

أخى :

إن الطريق إلى الله وغر ملغم بالأشواك . وقد قلت ذلك مراراً وتكراراً . ولازلت أردده على النفس وعلى المسامع والقلوب إلى أن ألقى الله . وعز شاق على النفس لتعارضه مع هواها . وعز شاق لأنه تحطيم لها وقضاء عليها . وعز شاق لأنه اعتقال لها ، وتحديد لإقامتها . وعز شاق لأنه يفرض الرقابة عليها ، ويهون من شأنها . وعز شاق لأنه يَكْبَحُ من جماحها . ويحد من سلطانها وذلك مدى عمرها وطول حياتها لا ساعة من الساعات . ولا وقتاً من الأوقات . فمن ذا الذى يرضى بذلك ويسعى إليه . ولا تزال نفسه التى بين جنبيه بكامل قوتها وعنفوان شبابها تسير فى طريق ملغم بالأشواك من عمل الشيطان الذى يقعد على الصراط . ويضع العراقيل ، وينشر الأباطيل أمام النفس الأمارة بالسوء . يزين ويُغري يفتن ويضل وما إلى ذلك من أعمال وظيفته وإنفاذ مهمته بكل الوسائل والحيل حتى لا يكون السلوك ولا يكون الانتظام على الصراط . أعاذنا الله وإياكم من شروره وأوضاره ، وضلاله ومكره . ﴿ وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

أخى :

ليس من الإيمان ولا من صفات 'المؤمنين والطالبين الطريق تفتتيرُ الهمة وقتل النشاط . كما أنه ليس من الإيمان ولا من صفات المؤمنين التزييف والتزوير والإغراء بالباطل ، والتشويق بالخرافات والخزعبلات . ولذلك تجدى فى حيرة وضيق . وقفنا الله والطالبين جميعاً إلى ما فيه الخير . وعليه يصح أن أقول إن الطريق إلى الله واضح لا لبس فيه ولا إبهام . فمن أراد السلوك فليحرم على نفسه ما حرم الله عليه وليتق الله ربه فى حركاته وسكناته . وليكثر من ذكر الله وعبادته . ولينظر إلى الدنيا

بعين الله . وليسقط رؤية أعماله . ولننظر الجزاء والثواب إلى يوم الدين . فهذا أول الطريق إلى الله وآخره . فمن أراد غير هذا فليعتزلنا فإننا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم - وللعلم أقول : إن الغنى والفقر من الله ، والمرض والشفاء من الله ، والعلم والجهل من الله . ووظيفة العبد في الحصول على مراده تعاطى الأسباب الشرعية المفضية إلى المسيبات قال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ فَأَتَّبِعْ سَبَبًا .

أخى :

يصح أن تسأل : لماذا تزعم وتشدد بقولك إن الطريق إلى الله شاق ملغم ؟ وقد كلفنا ربنا بالسلوك وقال : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ فالتكليف من الله يفيد اليسر ، ويؤكد القدرة الإنسانية على السلوك لأن الله لا يكلف عبده فوق ما يطيق ؟ وللإجابة عن هذا نقول : التكليف الرباني في ذاته وموضوعه ليس بشاق فهو أيسر من اليسر ، وأقل من الأيسر . ولكن الصعوبة والمشقة من جانب النفس المكلفة . والتي جعلها الله وسيلة ومطية ؛ فانظر أخى إلى الأعمال التكليفية حيث لا تستغرق من الفاعل لها وقتاً كبيراً . وانظر إلى النفس كيف تضيق بها وتضجر مع أنها لا تضيق ولا تضجر من أعمال الدنيا طيلة يومها أو طوال حياتها . فالموظف في المكتب ، والعامل في المصنع يقضى ساعات طويلة وصلاة الصبح والظهر مثلاً تأخذ منه عشر دقائق . فالنفس لا تضيق ولا تضجر من الساعات الأولى لما وراء ذلك من الكسب المادى العاجل ، ولكنها تضيق من الصلاة لأن ثوابها آجل لا يزال في عالم الغيب ، والأجر عليه مفوض إلى الله الذى لا تخفى عليه خافية . ومن هنا نعلم أن وعورة الطريق ومشقته تنجم من وضع النفس وصفتها . ولما كانت هى المصدر وهى الوسيلة . والمطية . فالتخالف لها تتطلب جهداً ومشقة . ولأنها ملهمة بالفجور وهو من طبيعتها فهى أشبه (باليائى) الصُّلب الموجود بالكبرى يعود إلى أصله وتركيبه حينما ترفع الضغط عنه . فكذلك النفس فى الرجوع إلى طبيعتها ولولا أنها ملهمة بالتقوى لما تحملت الضغط . ولما لانت لأعمال التقوى . فهى عند فجورها عنيفة جداً وعند تقواها هينة لينة سهلة منقادة كأن لم يكن لها فجور سابق ولا فجور لاحق .

انظر أخى إلى الرجل المؤمن حينما يُذَكَّرُ ويُزَجَرُ كيف يبكى ويحزن كيف يتأسف ويتأثر ؟ كيف يخشى ويخاف ؟ وانظر إليه حين يلهم بالفجور كيف يفسق ويضعف ؟ كيف يغضب ويثور ؟ كيف يشد الرحال إلى المعاصي والذنوب طواعية واستثناساً سهلاً منقاداً كأنه لا صلة له بإلهام التقوى ولا إيمان له بالله ورسوله واليوم الآخر . وهكذا طبيعة النفس فى شطريها . ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ ومن هنا نعلم أن مشقة السلوك من جراء طبيعة النفس . فمن استطاع التغلب على طبيعتها هان عليه السلوك وسهل له الطريق لأن ما كلف الله به عبده لا يخرج عن نطاق الاستطاعة ، ولا يتجاوز الطاقة الإنسانية . ودليلنا على ذلك أن النفس حين تشوق إلى المعصية أيّاً كان نوعها لو ضغط عليها صاحبها وصبر قليلاً على ثورتها وشدتها لانطفأت حرارتها ، وذهبت شدتها فتثوب إلى الرشد ناسية متناسية ما كان منها من قبل . وهذا يفيد ويؤكد على أن التكليف الربانى ليس بصعب ولا شاق كما تتصور النفس الأمارة وتتهم . فانظر أخى إلى الرجل يقدم على الزنى ويستعدّ له بكل قوته وشعوره ؛ فإذا ما حال بينه وبين التلبس بالجرمة حائل أو مانع رجع عن إقدامه واستعداده بالتوبة والندم . فهكذا أخى ملذات النفس كلها تنتهى عند الإعراض عنها أو الفراغ منها كأنه لا لذة ولا شعور باللذة . فانظر أخى إلى الرجل يتمنى المال ويجمعه . فإذا ما تحصّل وجمع المال المطلوب فقد اللذة والشعور به ، فثلاً يَقْعُدُ ويتكاسل تفتح النفس والشيطان باب الفقر عليه بالإشراف على ما ليس فى يده من المال وسواه من متع الحياة . قال تعالى : ﴿ فَلَا تُغْنِكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَعْرِزُّكُمْ بِاللَّهِ الْعُرُورُ ﴾ -

أخى :

إن السلوك إلى الله يقتضى الاستعداد الكامل قبل الدخول فى المعركة مع النفس والشيطان ، ومع هذا فقد تكون الغلبة لهما فى الكثير من الأحيان قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ . واعلم أنه لولا صعوبة الطريق إلى الله والمشقة التى يلقاها السالك لما جعل الله الحسنه بعشر أمثالها . ولما كان مجرد إلقاء السلام على المؤمن له ثلاثون

حسنة . كما ورد بذلك الأثر ولما كلفنا الله بالدعاء في اليوم مرات ومرات بقوله سبحانه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿

أخى :

إن الطريق وعر شاق شاق فمن أراد أن يعرف ذلك فليأخذ نفسه بالسلوك الصادق وليس باتباع هوى النفس لأن هذا ميسور لكل طالب لأن الشيطان المعارض مقامه على الصراط المستقيم ومركزه الطريق القويم . ﴿لَا أَقْعَدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ * ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿ ولست أقصد بالطريق ما تعارف عليه الناس كلاً إنما أقصد الطريق إلى الله بمعنى أن يكون العبد دوماً في محاب ربّه ومرضاته . فلا يحيد عن الطريق الذى يرضى الله عنه . ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ .

وللعلم أقول : إن المعصية لا تفيد عدم السلوك ؛ لأن السالك معرض لها . إنما الإصرار عليها وعدم التوبة منها هو الذى يفيد عدم السلوك . فمن تاب تاب الله عليه ومن استغفر غفر له . ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ .

ولا بد أن نعلم أن وعورة الطريق ناجمة ونتيجة من ضعف النفس وعجزها عن متابعة السير إلى ربّها . فالطريق مفتوح في كل لحظة للطالبيين والمريدين ، والأعمال لا تدخل الجنة حيث دخولها بفضل الله ورحمته . فالأعمال مهما كانت كثرتها وضخامتها لا تساوى شيئاً بالنسبة لثواب الله ونعيمه قال تعالى : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ فقول الله . وفضل . دليل على تفضله على عباده بالثواب . إذ لو كان في مقابلة العمل لما كان فضلاً . وليعلم أخى أن

الاعتزاز بالأعمال من رعونة النفس . فالإنسان مهما اجتهد في عبادة الله ، وكلف نفسه ، وحملها على الطاعة وعمل الصالحات فلا يؤهله عمله وحده لدخول الجنة ومن طمع أن يدخل الجنة بعمله كان كمن يطمع أن يأخذ ألف دينار على عمل لا يساوى ولا يستحق عليه في التقدير العادل إلا ربع دينار مثلاً . ولكن الله الغنى الكريم يتغمد من يشاء من عباده المؤمنين بفضله ، ويتداركهم برحمته فيثيبهم على العمل القليل بالأجر الجزيل ، ويدخلهم الجنة فضلاً منه ورحمة . قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ حيث التوفيق إلى العمل من الله وحده . ولولا التوفيق ما كان العمل . ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ وعلى هذا نجد المؤمن الصادق يبذل الجهد في العمل ، ويكدح في الصالحات ، ويتفانى في الطاعات ومع هذا فالخوف يملأ قلبه ، والفرع من عدم القبول يزعج نفسه قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ • أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ .

وقد علمت أن هناك فرقاً كبيراً بين خوف العوام وخوف الخواص . والذي أعنيه دوماً من ذكر الطريق إلى الله مرتبة الخواص . فإن خوف العوام ورجاءهم وعبادتهم له حد ونهاية . أما خوف الخواص ورجاؤهم وعبادتهم فليس له حد ولا نهاية ، فالعوام يخافون العقاب على المخالفة ، ونهاية خوفهم دخول النار ، وخوف ما فيها من الآلام ، ورجاؤهم فيما وعدوا به من الثواب وجزيل العطاء بحسب الوعد الجميل . ونهاية الرجاء دخول دار الجنة والتنعيم بما أعده الله لهم فيها . وعبادتهم حدها : التزام توفية الله ما جعل الله عليهم من ألوان العبادة . ونهايتها : ارتقابهم القدرة على خلاف ذلك والاستراحة إلى قوله تعالى ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ فهذه هي طريق العوام : أما الخواص فخوفهم من الله لا حد له لأنهم يخافون عدله سبحانه وعظمته . ولا حد لعدله وعظمته عز وجل ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ولذلك إذا طرأ لأحدهم طارئ الخوف إن لم يتداركه بتنسم الفضل والرحمة انفطرت كبده ، وشحب وجهه ، وارتعدت فرائصه . كما كان يحصل لأقطاب الصوفية ، وكبار

الصحابة رضى الله عنهم أجمعين ، وأما رجائهم فهم يرجون محض فضله عز وجل وما يرجونه لا حد له ، ويحصل لهم بذلك من شدة البسط ، وقوة الرجاء ، واليقين ما يعجز مثلى عن وصفه وبيانها ، ولربما تخف روحهم حتى يكادوا يطيطرون من الفرح والانشراح ، ومع ذلك يحافظون على الأمر والنهى محافظة لا يقدر غيرهم عليها .

أخى :

إن العبرة ليست بذات الأعمال ، وإنما هي بالقوة الدافعة إليها ، وبالطاعة لله التى اقتضتها ، فإن الله سبحانه يجازى عبده على قدر طاعته له ، وإيمانه به - وللطاعات علامات ودلائل فالأعمال علامتها ودلائلها حيث الطاعة قلبية محضة - والأعمال تشترك فيها الجوارح التى هى من عالم الشهادة ومن هنا نعلم أن الأعمال إذا لم يشترك فيها العالمان : عالم الغيب وعالم الشهادة : لا قيمة لها ولا وزن . أعاذنا الله وإياكم من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، وهدانا وإياكم سواء السبيل .

* * * *